

فضيلة المحدث

عبد الله سراج الدين رحمه الله

ولادته ونشأته العلمية

ولد الشيخ الإمام سيدي الوالد عبد الله بن سيدي الشيخ محمد نجيب سراج الدين رضي الله عنه في بيت عرف ببيت الفضل والكرم والعلم وذلك لما اشتهر عن والده رضي الله عنه بحل المعضلات العلمية وبيان ما التبس فهمه واشتبه أمره من العلوم والمعارف العالية حيث إن كبار علماء ذلك الوقت كانوا يقصدونه فإذا قال لهم قولاً أذعنوا له وكان قوله هو القول الفصل، ولذلك كانوا يتساءلون فيما بينهم: ماذا قال الشيخ محمد نجيب في ذلك؟ رضي الله عنه ونفعنا الله بعلومه وبركاته.

وقد عرف عن الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه علو المكانة ورفعة المقام والمنزلة في قلوب أهل عصره فقد درج على السنة كثير منهم كلمات التكريم والتعظيم لمقام الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه إن هم ذكروه أو سمعوا شيئاً من كلامه أو عن مناقبه.

في هذا البيت العامر باليمن والبركة المشهور بالعلم والمعرفة كانت ولادة مولانا الإمام الشيخ عبد الله رضي الله عنه سنة / ١٣٤٢ / للهجرة الشريفة.

وفي هذا البيت الفاضل المعروف بالنسب والحسب نشأ شيخنا الإمام رضي الله عنه وترى في أحضان والده العارف الكبير الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ووالدته السيدة خديجة المكتبي بنت الشيخ وحيد المكتبي الذي استشهد في أيام الحرب العالمية الأولى فكفلها عمها العلامة الكبير فقيه عصره السيد الشيخ أحمد المكتبي رحمه الله تعالى.

وقد حظي شيخنا الإمام رضي الله عنه منذ صغره بدعوات وبركات من العلماء والأولياء والصلحاء الذين كانوا يزورون مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه أو يزورهم لأنه كان بصحبته في غالب الأحيان.

وقد تعلم شيخنا الإمام رضي الله عنه تلاوة القرآن الكريم وتجويده في كتاب جامع سليمان الأيوبي عند الشيخ عثمان المصري رحمه الله تعالى ويقع قريباً من دار الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه.

كما قرأ عند الشيخ المذكور رحمه الله تعالى شيئاً من قواعد اللغة العربية.
ولما أتقن تجويد القرآن الكريم حب إليه والده رضي الله عنه استظهار القرآن - يعني حفظه عن ظهر قلب - فشرع شيخنا الإمام في ذلك عند الشيخ عبد الوهاب المصري رحمه الله تعالى في كتاب قريب من جامع العثمانية فاستظهر القرآن الكريم وله من العمر اثنتا عشر سنة.

وكان في تلك الفترة يذهب إلى معهد الفلاح في جامع السلطانية الذي كان يديره الأستاذ الكبير الشيخ محمد خير الدين إسبير وقد تعلم في تلك السنوات القراءة والكتابة وتوسع قليلاً في علوم اللغة العربية وحفظ نصوصاً في البلاغة والشعر كقصيدة [بانت سعاد] للصحابي الجليل كعب بن زهير رضي الله عنه وقصيدة البردة للبوصيري رحمه الله تعالى، وحفظ شيئاً من القصائد والمدائح النبوية كما حفظ طائفة كبيرة من أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وكان في ذلك كله يحوز على الدرجة الأولى ويتفوق على من معه بأسبقية شهد بها كل من درسه أو سمع له.

سلوكه طريق العبادة والتقرب إلى الله تعالى

لقد حبب الله تعالى إليه منذ صغره تلاوة القرآن الكريم وقراءة [دلائل الخيرات] في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم للإمام الجزولي رضي الله عنه وبعد أن استظهر القرآن الكريم وهو ابن اثني عشرة سنة كان يحتم القرآن كل سبعة أيام ختمة وربما في ثلاث خاصة في الأيام الفاضلة كأيام رمضان وعشر ذي الحجة وهكذا لأنه كان أيضاً يراجع محفوظاته من الأحاديث الشريفة وأمّهات المتون.

وكان يقرأ كل يوم أيضاً مجموعة الصلوات الإدريسية وهي عدة منظومات في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من نظم الإمام العارف بالله تعالى الشيخ أحمد بن إدريس رضي الله عنه وكانت هذه المجموعة وشروحها موجودة في مكتبة والده الإمام الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه وتعجبه كثيراً وينشرح لقراءتها لما فيها من أسرار ومعان عرفانية عالية، ثم وفقه الله تعالى إلى قراءة أورد السادة الرفاعية رضي الله عنهم، خاصة كتاب: (السير والمساعي في أورد سيدي أحمد الرفاعي) رضي الله عنه، وكذلك حزب الفرج لسيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه أيضاً.

ثم جمع رسالة في الأذكار والأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصباح والمساء، وكانت هذه من جملة أوراده اليومية رضي الله عنه. وكانت له أوراد في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بأعداد كبيرة، وأوراد خاصة بباقي الطرق: كالطريقة القادرية، والطريقة البدوية رضي الله عنهم أجمعين. وكان يدير حلقة الذكر بأسلوب يتفق مع جميع الطرق الموصلة إلى الله تعالى، وذلك ليلة الثلاثاء من كل أسبوع في جامع سليمان الأيوبي، ثم نقله إلى جامع العثمانية لاتساعه، بسبب إقبال الناس على حضور حلقة الذكر.

وأما عن قيامه في الليل للتهجد، فلم يدعه منذ صغره حتى آخر أيام عمره المبارك، كما أخبرتنا بذلك الوالدة الكريمة أمدها الله بمدده وعونه. وكان يجهر في قيامه بتلاوة القرآن، وبالأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قلت: وكثيراً ما كان شيخنا الإمام رضي الله عنه يحرص على قيام الليل ويرغب فيه في مجالسه العامة والخاصة، ويقول: [لقد دلت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الواردة في ذلك على أن من أراد خير الدنيا والآخرة، والوصول السريع إلى مقامات القرب من الله تعالى: فعليه بالمواظبة على قيام الليل، ولو قبيل الفجر بشيء يسير، لئلا تفوته ساعة التحلي الأكبر على العباد بالجود والعطاء.

وكان رضي الله عنه إذا أراد أن يختم القرآن الكريم جمع من كان في البيت من أولاده وأحفاده وشرع في الختم ثم الدعاء، وذلك عملاً بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رضي الله عنه في السنوات الأخيرة من عمره المبارك يختم القرآن الكريم كل ثلاثة أو أربعة أيام، ويا ليت عين كل مؤمن تنظر إلى تلالؤ وجهه بالبهاء والنور، خاصة حينما كان يقرأ القرآن أو يدعو الله تعالى.

اطلاعه على دروس والده

قال الشيخ الإمام رضي الله عنه:

وكنت آخر سني دراستي في الخسروية قد استأذنت والدي رضي الله عنه في قراءة دروسه القديمة التي لم أدركها فأذن لي وتناولتها بالقراءة بفهم ودراسة وذلك مما سهل علي فهم

مطولات الكتب في علم التوحيد والتفسير وعلوم الحديث وأصوله أيام خلوتي للمطالعة في غرفة والدي في المدرسة الشعبانية.

ومما قاله مولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه عن دروس والده:

أن الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه كان يكتب دروسه كلها قبل أن يذهب إلى التدريس ويستظهرها ثم يمضي إلى المسجد ليلقيها وربما أتى بشروح إضافية من عنده لإفهام بعض العامة حيث كان درسه عاما وليس للعوام وكان محتوى دروسه بشكل عام يقتصر على علم التوحيد وقضايا الإيمان ودفع الشبهات وإزالة الضلالات وهناك دروس في الجامع الأموي تتضمن شرح أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ذكرها الإمام البخاري في صحيحه وهناك دروس تضمنت أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ذكرها الإمام السيوطي في الجامع الصغير.

وقال رضي الله عنه: كان سيدي الوالد رحمه الله تعالى يفتح دروسه في الجامع الأموي

وجامع بانقوسا - يفتح ذلك بالصيغة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار - هذا الحديث كثيراً ما كان صلى الله عليه وسلم يفتح خطبه به، وكان والدي الكريم يفتح به دروسه إتباعاً له صلى الله عليه وآله وسلم، واستفتاحاً وتبركاً - ثم يقول: بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبة، الجعفي البخاري قال - أي البخاري - : حدثنا عبيد الله بن موسى، قال: أخبرنا حنظلة بن أبي سفيان، عن عكرمة بن خالد، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت) ثم يدخل في بحثه العلمي الذي يريد

أن يليه، مع ربطه في البحث الذي قبله، على وجه متسلسل، ومترايط ومتناسب، وكان إذا ختم الدرس وانتهى من البحث يقول: وسيأتي تمام هذا إن شاء الله تعالى، فإذا قال ذلك، بدأ الناس المستمعون بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم جهراً، بصيغة الصلاة الإبراهيمية ثلاث مرات، ويقولون في آخر كل صلاة: عدد خلقك، ورضاء نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك، كلما ذكرك وذكره الذاكرون، وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون.

ثم يقولون عشر مرات: لا إله إلا الله - جهراً،

ثم يسمع الحاج محمود الحاج كريم رحمه الله تعالى الفواتح، ثم يدعو سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى، وبذلك يكون الختام وكان دعاءه عقب الدروس وفي خطبة الجمعة كما يلي:

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

اللهم أيد الإسلام والمسلمين، وانصر وأعل يا مولانا كلمة الحق والدين.

اللهم ارفع الكرب والشدائد عن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

اللهم ارحم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

اللهم أصلح أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

اللهم احفظ أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

ثم يقول سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى عند انتهائه من الدعاء وراء دروسه: (سُبْحَانَ

رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) والمستمعون

يقولون ذلك مع سيدي الوالد رحمه الله تعالى جهراً وجماعة.

قلت: وقد بسط الشيخ الإمام رضي الله عنه الكلام حول ذلك مفصلاً في كتابه:

حول ترجمة المرحوم الإمام العلامة الشهير والعارف الكبير فضيلة سيدي الوالد الشيخ محمد

نجيب سراج الدين الحسيني رضي الله تعالى عنه، فارجع إليه تجد ما ينفعك إن شاء الله.

وقد أكرمني مولانا الوالد رضي الله عنه بأن أعطني بعض أوراق دروس والده الكريم

مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه - ولم تكن في مجموعها تتجاوز خمس دروس -

وأشار علي بكتابتها من جديد وكان موضوعها حول شرح بعض الأحاديث النبوية التي ذكرها الإمام السيوطي في جامعہ وبعض أحاديث صحيح البخاري ونهني إلى بعض التحويلات والاستدراكات التي كان يكتبها الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه على جانب الصفحة أو على روفة مستقلة لتلحق بالأصل فكتبها بقلمه وكان لي صديق يجيد أنواع الخطوط فكتب شيئاً منها بخط جيد حسن، وكان كل ذلك قد حصل في صيف عام ١٣٩٧ هـ ثم جاور مولانا الشيخ رضي الله عنه في المدينة المنورة وبعد عودته أعطاني بعضاً منها ولم تزل بقية أوراق الدروس بمجموعها محفوظة في مكتبة مولانا الوالد رضي الله عنه وقد رأيت من الفائدة بمكان أن أنسخ صفحة من مخطوطاته التي خطها بيده المباركة رضي الله عنه وهي مكتوبة بقلم من قصب يستمد الحبر من محبرة إلى جانبه إذ لم تكن الأقلام المعروفة حتى ولا الأوراق المعهودة لدينا متوفرة بسهولة وقتئذ.

اشتغاله بالعلوم الشرعية

كان من جملة أنظمة المدرسة الخسروية التي تعنى بتدريس العلوم الشرعية: أن لا يقبل إلا من تجاوز الخامسة عشرة من عمره ويخضع فيها الطالب لامتحان قبول يعرض فيه على لجنة من العلماء والمدرسين بحيث يمتحن الطالب في القراءة والكتابة ومبادئ اللغة العربية وتجويد القرآن الكريم.

وقد قبلت إدارة المدرسة شيخنا الإمام ولم يبلغ الثالثة عشرة من عمره بعد وذلك لما وجدوا فيه من الاستعداد الكامل والأهلية التامة لمتابعة العلوم الشرعية وكان من المتفوقين في فحص القبول.

أمضى ما يقرب من ست سنين في المدرسة الخسروية استمع فيها إلى دروس كبار العلماء والمشايخ منهم: الشيخ محمد سعيد الإدلي /ولد سنة ١٢٩٢ هـ وتوفي سنة ١٣٧٠ هـ/ والشيخ إبراهيم السلقيني الكبير، والشيخ أحمد الحجي الكردي أمين الفتوى وقتئذ، والشيخ عيسى البيانوني، والشيخ فيض الله الكردي، والشيخ عمر مارتيني، والشيخ راغب الطباخ /ولد سنة ١٢٩٣ هـ وتوفي سنة ١٣٧٠ هـ/، مدير المدرسة الخسروية وقتها، وغيرهم من المدرسين أهل الفضل والعلم رحمهم الله تعالى ونفعنا بهم.

وكان في تحصيل العلم من المتفوقين، حاز الدرجة الأولى في جميع سني دراسته، والتفت إلى حفظ متون أمهات العلوم، وإن لم تكن كلها من مقررات المدرسة وقتها، إلا أن رغبته الصادقة في تعلم العلوم الشرعية حملته على ذلك، فحفظ متن الجزرية في علم التجويد، و متن الجوهرة و متن السنوسية في علم التوحيد، و متن السلم في علم المنطق، و متن البيقونية في علم مصطلح الحديث وألفية ابن مالك في علم النحو والصرف و عقود الجمان في علم البلاغة ثم حفظ ألفية الحافظ العراقي في السيرة والرحبية في علم الفرائض وغيرها.

اشتغاله بعلم التفسير والحديث

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه:

لقد حبب الله تعالى إلي حفظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ صغري، ولما كنت في الصف الثاني الإعدادي في المدرسة الخسروية رأيت في مكتبة والدي رضي الله عنه كتاب [تيسير الوصول] / إلى جامع الأصول وهو مختصر [جامع الأصول لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم] للإمام عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الديع الشيباني، ولد سنة ٨٦٦هـ وتوفي سنة ٩٤٤هـ رحمه الله تعالى.

ويقع في أربع مجلدات تناولت المجلد الأول منها في العطلة الصيفية وشرعت في الحفظ حتى حفظت في كل عطلة مجلداً وأنهيت الحفظ في آخر عطلة من دراستي في المدرسة الخسروية وكنت لا أشعر في حفظ شيء جديد حتى أتمكن وأتقن محفوظاتي السابقة.

وكنت أتناول كتب تفسير القرآن الكريم وأحاول فهم آيات الله تعالى من خلال أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي في الحقيقة بيانات لمعاني القرآن الكريم لأن الله تعالى يقول: **(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)** ولم يكن يخطر في بالي مرة أنني سأصدر مجلساً للتدريس أو أصعد منبراً للخطبة بل إن الباعث لي على ذلك كله هو حبي لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ورغبتني الشديدة في تعلم آيات الله تعالى وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنني بعد ذلك وجدت قيمة ذلك وأثره لما استلمت الخطبة والتدريس عن والدي الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه وعلمت أن سلاح طالب العلم هو: قال الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وبدون ذلك أني للعالم أن يتكلم!؟

قلت: وفي ذلك إعداد من الله تعالى لشيخنا الإمام وإمداد له منذ صغره ودليل على صدقه وإخلاصه في طلب العلم فلم يك يتغي من وراء ذلك منصباً ولا جاهاً ولا وظيفة، وقد تجلّى ذلك لما خرج من المدرسة الحسروية ولم يكمل الصف السادس فيها، ولم يحصل على شهادة منها وكان ذلك بسبب أن إدارة المدرسة أدخلت جملة واسعة من العلوم الكونية في المقررات وأجبرت طلاب الصف السادس على الرجوع إلى الصف الرابع لدراستها.

وقد حبب الله إليه البحث حول شمائل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وخصاله الشريفة وسيرته الزكية، وكان يسر غاية السرور لقراءتها والاطلاع عليها، خاصة منها المؤيد بادلة الكتاب والسنة ومفاهيم العلماء والعارفين رضي الله عنهم، ومن هذا لما عرض عليه الشيخ رشيد الراشد كتاباً جمعه حول هذا الموضوع وسماه: الدر المنظم في وجوب محبة السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم، قرظ له الشيخ بهذه الكلمات:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً ليس له عد ولا إحصاء، والشكر لله شكراً لا حد له ولا استقصاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحكيم الفعال لما يشاء، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله إمام الرسل والأنبياء، وأصلي وأسلم على من خلقت من نوره جميع الأشياء وعلى آله واصحابه البررة الأصفياء صلاة وسلاماً عدد ما أظلت الخضراء وأقلت الغبراء في كل لحظة ونفس ما دامت الأرض والسماء وبعد:

فقد اطلعت على كتاب الدر المنظم في وجوب محبة السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم فرأيت فيه نوراً محمدياً باهراً وضياء نبوياً زاهراً تتجلى فيه أوصافه صلى الله عليه وسلم الكاملة وأخلاقه الزكية العالية وهو كتاب يلهب الشوق في قلوب المشتاقين ثم يعشها بروح رياح تلك الرياحين، يزداد به الذين اهتدوا هدى ويقيم الحجة على أهل البدعة والردى، موضوعه البحث في الذات المحمدية وما اتصفت به من الصفات السنية، قد اغترف جامعته من بحور العارفين الزاخرة وأبجر العلماء الوافرة فالتقى البحران بحر العلم وبحر العرفان، والله تعالى أسأل وبأفضل أنبيائه أتوسل أن يجزي جامعته خيراً كثيراً وأجرأ كبيراً والحمد لله رب العالمين

الفقيه لمولاه: عبد الله سراج الدين

مطالعه وتدرسه:

ثم إن مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه أشار على شيخنا الإمام أن يقوم بالتدريس بدلاً عنه، بسبب الوهن والمرض الذي أصاب الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه فقام شيخنا الإمام رضي الله عنه بذلك خير قيام مستعيناً بالله تعالى وتوفيقه وتأييده وقد قارب العشرين من عمره ثم إنه حصل على غرفة والده الشيخ محمد نجيب رحمه الله تعالى في المدرسة الشعبانية - وكان يقال لها: أزهر حلب - وكان الشيخ محمد نجيب رحمه الله تعالى قد جاور فيها أيام طلبه للعلم.

وبقي شيخنا الإمام يتردد إلى تلك الغرفة يقضي أوقاته في مطالعة الكتب العلمية، ويتناول المطولات منها في علم التفسير والتوحيد وشرح الحديث والفقه وغيرها وبقي على ذلك ما يقرب من سنتين.

ولما اقتضى الأمر أن تكتسب دروسه صفة رسمية لدى الجهات المسؤولة تقدم إلى مسابقة أعلنت عنها دائرة أوقاف حلب، لدرس وقفي شاغر، وكان لشيخنا الإمام الفوز والأسبقية في النجاح.

أما دروسه العامة فنهج فيها نهج والده الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه من حيث توقيت الدرس والأبحاث العرفانية العالية التي كان يتناول الكلام عنها، بأسلوب مبسط يسهل على الحاضرين فهمه، ويفهمونه على حسب علمهم وفظانتهم، خاصة أنه يكثر من ذكر الآيات والأحاديث التي تؤيد الموضوع الذي يبحث فيه.

فكان هناك درس في جامع بانقوسا بعد صلاة العصر من كل يوم جمعة، يبحث في القضايا الإيمانية العلمية.

وهناك درس في الجامع الكبير بعد صلاة الظهر في كل يوم اثنين، يتناول فيه الكلام حول قضايا الإيمان العملية.

ولا يخفى على من كان يحضر دروسه أنها كانت متسلسلة في الأبحاث يبتدئ الشيخ الإمام فيها بتذكير الحاضرين بالدرس المتقدم، ليستجمع الحاضر فكره وقلبه إلى ما سيلقي شيخنا الإمام من بيانات وأبحاث.

وكان له صباح كل يوم عدا يوم الجمعة درس في جامع الحموي، يقرأ فيه أبحاثاً من السيرة النبوية، والتفسير، والحديث، والفقه وهكذا، ثم اختصر تلك الدروس على أيام الأحد والأربعاء والخميس، وذلك بسبب كثرة مشاغله، خاصة أنه وكل إليه تدريس التفسير، والحديث وعلومه، والفقه، في الثانوية الشرعية - وكانت تعرف من قبل بالمدرسة الخسروية -، كما كان شيخنا الإمام يخطب الجمعة في جامع سليمان الأيوبي، الذي كان يخطب فيه قبله والده الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه.

افتتاحه للمدرسة الشعبانية

لما عدلت مناهج المدرسة الخسروية وقرر فيها دراسة كثير من المواد الكونية على حساب المواد الشرعية تأثر لذلك كثير من العلماء الأفاضل في ذلك العصر ومنهم الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه الذي رأى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يأمره أن يفتتح مدرسة تخصص لدراسة العلوم الشرعية على النهج القديم.

وبحث مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ذلك الأمر مع أصحابه إلا أن الوهن والمرض الذي أصابه حال دون تحقيق رغبته حتى توفاه الله تعالى سنة ١٣٧٣هـ وبقيت الفكرة قائمة لدى شيخنا الإمام إلى أن وفقه الله تعالى إلى ذلك سنة ١٣٨٠هـ بالتعاون مع بعض المدرسين والعلماء الذين كانوا قد تركوا التدريس في المدرسة الخسروية وكان افتتاح الصف التحضيري والصف الأول في غرفتين في جامع الحموي حتى حصل شيخنا الإمام على المدرسة الشعبانية التي كانت قد أغلقت وألحق طلابها بالمدرسة الخسروية.

وكان شيخنا الإمام قد أشار على بعض المحسنين الموسرين ممن يحضرون دروسه أن يسعوا لإنشاء جمعية خيرية تقوم بالإنفاق على طلاب العلم الذين يدرسون في المدرسة الشعبانية. وقد تحققت رغبة شيخنا الإمام وأسس جمعية التعليم الشرعي وأشهرت لدى الجهات الرسمية حتى إن المسؤول الذي وافق على ترخيصها وقتئذ - وقد نظر في أعمالها وأهدافها - قال: هذا ما أرجو الله تعالى أن ينفعني به إذا صرت في قبري.

ولما اكتملت صفوف المدرسة ست صفوف من مرحلتين إعدادية وثانوية رأى أحد خاصة تلامذة الشيخ محمد نجيب وأحد خاصة مدرسي المدرسة الشعبانية فضيلة الأستاذ

الشيخ محمد بن محمد بن محمد آل الغشيم رحمه الله تعالى رأى في المنام الشيخ نجيب رضي الله عنه وأثر التعب على وجهه والعرق في جبينه

فقال له: مم هذا يا سيدي!؟

فقال الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه له: [انظر الآن لقد أتممت لكم رصف الطريق الموصل إلى باب المدرسة الشعبانية] فنظر الشيخ الغشيم فرأى الطريق معبدة مرصوفة نظيفة، ولما قص تلك الرؤيا على شيخنا الإمام قال:

رحم الله تعالى والدي وجزاه عنا خير الجزاء فإن فكرة إنشاء المدرسة كانت بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم له ولا يزال يعمل على تحقيق ذلك حتى حصلت رغبته وحقق الله مراده والحمد لله رب العالمين والأمر كله في كتاب أعماله الصالحة إن شاء الله.

وبقي شيخنا الإمام رضي الله عنه يدير المدرسة ويرعاها بعنايته وتوجيهاته ودعوته حتى توفاه الله تعالى ولا زالت بفضل الله تعالى تخرج طلاب العلم الأكفاء لمتابعة الدراسات العليا في شتى المعاهد والجامعات ومنهم الأئمة والخطباء والمدرسون.

وقد كان رضي الله عنه يقول: لقد تشعب عن المدرسة الشعبانية كل خير والحمد لله فقد تفرع عنها دار لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم القراءات وحلقات لقراءة الحديث الشريف وكم من مدرسة شرعية أنشئت بعد المدرسة الشعبانية وقد استعانت بمناهجها والحمد لله.

وكان رضي الله عنه يقول: لقد عمر المدرسة الشعبانية حساً ومعنى أكابر الرجال من العلماء والأولياء ومنهم من جاور فيها لفترات طويلة ولا تزال بركاتهم وآثار طاعتهم وعبادتهم لله تعالى مشهودة عند أهل التقى والصفاء.

ويقول رضي الله عنه: إن المدرسة الشعبانية وإن كانت حسب الظاهر متواضعة بجدرانها وبنائها إلا أنها شامخة بمن عمرها ودرس أو درس فيها ولها مكانتها وعلو مرتبتها عند الله تعالى.

قلت: وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه لا يترك في دعائه الدعاء للمدرسة الشعبانية وما يتبعها وللعاملين عليها والمدرسين فيها ولطلابها وإدارتها.

وكان يوصي المدرسين فيها كلما زاروه يوصيهم بالاهتمام وببذل الجهد في التعليم وأن يحافظوا على حلقات السلسلة العلمية الشرعية ولا يدعوا النقص والضعف والتفكك يسري إليها فكما أخذوا العلم عن مشايخهم بقوة فعليهم أن يوصلوه إلى من بعدهم بقوة وهكذا، وكان يشحذ همة المدرسين والطلاب أيضاً ويشرهم بأن الشعبانية محفوفة بالأنظار المحمدية صلى الله عليه وسلم فمن عمل فيها أو أسدى إليها معروفاً فقد ناله من النفحات والأنظار المحمدية على حسب صدقه وإخلاصه لله تعالى.

قلت: وقد قص شيخنا الإمام مرة أنه رأى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يصلي إماماً في ساحة المدرسة الشعبانية وقال رضي الله عنه:
لقد عمرتها أنوار الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم وأنوار العلماء والأولياء والصالحين نفعنا الله تعالى بهم أجمعين.

وكان من عاداته رضي الله عنه في شهر رمضان المبارك أن يصلي العشاء والتراويح إماماً في جامع الحموي وبقي على ذلك سنين ثم نقل ذلك إلى جامع المدرسة الشعبانية حباً فيها وإحياء لها وخاصة أيام العشر الأخير من رمضان ويطيل الدعاء بعد الصلاة لما لتلك الليالي المباركة من عظيم الفضل ومضاعفة الأجر.

وجاء في نهر الذهب [٢-١١٦-١١٧] وإعلام النبلاء [٧-٤٣٨-٤٣٩]:

هذه المدرسة بناها شعبان آغا بن أحمد آغا المأمور بتحصيل الأموال في حلب سنة ١٠٨٥ للهجرة وقد اشترى الأرض الخالية الواسعة الأنحاء من جانبولاد زاوه محمد بك.

الكائنة في محلة الفرافرة وبنى فيها مسجداً بديعاً من الحجر عليه قبة عالية جسيمة وبنى فيها مدرسة من الحجر ذات قبة عالية لتقرأ فيها مباحث العلوم والفنون وهي مدرسة عظيمة عامرة وتشتمل على صحن واسع يبلغ خمسين ذراعاً في مثلها في وسطه حوض مربع يبلغ بضعة عشر ذراعاً في مثلها قد حف في شماليه وغربيه بحديقة جميلة وفي جنوبي الحوض إلى شرقيه مكان للماء واسع حفره وأنشأه المرحوم تقي الدين باشا سنة ١٢٦٩ من وصية والده المرحوم عبد الرحمن أفندي المدرس، وفي غربي الصحن وشرقيه رواقان ممتدان من الشمال إلى الجنوب داخلهما سبع وعشرون حجرة للمجاورين وفي جهته الشمالية دار للتدريس وهي قبة

عظيمة واسعة وفي شرفها حجرة واسعة وفي جنوبي الصحن قبلية في شرفها رواق واسع، وفي غربيها مدفن وقفي ومسجدها تقام فيه الصلوات والجمعة.

قال الشيخ سامح أفندي العينتابي:

وشيدت رواقاً شرقياً ورواقاً غربياً وداخلهما تسع وعشرون حجرة وخصصت هذه الحجرات لسكن طلبة العلم الشريف، وفرشت في المسجد المذكور بالحجر المرمر وجعلت في وسطه بالحجر المرمر، وجعلت في وسطه حوضاً عشرينياً بعشر ذا صفة أنيقة من المرمر وزينت ثلاثة أطراف هذا الحوض الكبير بحدائق على أن يجري إليها الماء من قناة حلب باستحقاق مقرر عن كتاب واقفه التركي وبنيت مكتباً لطيفاً للأهالي المسلمين جنوبي المدرسة يعلم فيه القراءة ومبادئ الكتابة.

وقال الشيخ راغب الطباخ [٧-٤٣٨-٤٣٩]: ولم أقف على أول من تولى التدريس فيها لكني رأيت في أول حاشية الشيخ محمد المرعشي الملقب بساجقلي ذاته ما نصه: لما وليت تدريس المدرسة الشعبانية المحروسة في قريب من تمام ألف ومائة للهجرة، ويظهر من هذا أنه ثاني من تولى التدريس فيها.

وقد تولى أمرها على وقف الشعبانية الشيخ أحمد الزويتيني مفتي حلب المتوفى ١٣١٦ للهجرة ثم تولى أمرها الشيخ مصطفى ولده بقي من ١٣١٦ إلى سنة ١٣٣١ للهجرة وفيها أتى إلى حلب أحمد جودة أفندي من أهالي تركيا مصطحباً امرأة هرمة تدعى خديجة وادعى أن هذه المرأة وأخاها الغائب حمدي أفندي هما من ذرية الواقف وانهما المتوليان على هذه المدرسة مقتضى شرط الواقف وطال أمر المحاكمة والمرافقة بينهما وفي النهاية تنازل الشيخ مصطفى عن التولية وحكم بها لهذه المرأة ولأخيها بالوكالة عنهما لأحمد جودة المذكور.

ولإهمال بعض شؤونها أقام بعدها مدرس المدرسة الشيخ أحمد الزرقا من نجل أستاذنا الكبير الشيخ محمد الزرقا دعوى على وكيل المتولين يطلب فيها منعه من التشبث بكتابة الوقف المذكور.

وفي سنة ١٣٤٢ اهتمت دائرة الأوقاف بأمرها بعض الاهتمام وألزمت وكيل المتولي أن يقبل الطلاب من أهالي حلب وغيرهم وذلك على أثر القرار الذي أعطي من قبل مجلس الأوقاف الأعلى الذي عقد في دمشق سنة ١٣٤٠.

فجاور فيها ثلاثون طالباً وصارت تعطى لهم الرواتب غير أنه لم يطبق عليها النظام الموضوع للمدرسة الخسروية.

قلت: وفي فترة متأخرة تم شق شارع يصل ما بين الطريق الذي يربط بين قلعة حلب ومنطقة السبع بحرات المعروفة الآن وعلى إثر ذلك تهدم جزء من المدرسة وبقيت إطلالته على الشارع كجدار قدس.

وفي عام ١٣٩٦ هـ قام المرحوم المحامي سليمان النسر - مدير أوقاف حلب وقتئذ - بإشارة ونصيحة من الشيخ الإمام لعمل خير يبقى في صحيفته إلى يوم الدين - قام بإنشاء مبنى مؤلف من طابق أرضي وفوقه غرف مبنية كصفوف متممة لما تبقى من صفوف المدرسة في الطابق الأرضي، وعند انتهائه من البناء عام ١٣٩٩ هـ قام بتسليمه لإدارة المدرسة الشعبانية فجزاه الله خير الجزاء.

إجازات الشيخ الإمام

نظراً لما كان يحفظه شيخنا الإمام رضي الله عنه من أحاديث كثيرة، واطلاعه الواسع على كتب الحديث، بادر كبار العلماء والمحدثين إلى إجازته للرواية عنهم بما أجازهم به شيوخهم، واستجازته بما يرويه عن شيوخه، وكان أول من أجاز شيخنا الإمام رضي الله عنه والده الإمام العارف المحدث الشيخ محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى بجميع ما أجاز به شيوخه، ومنهم الشيخ الكبير المحدث العلامة مسند الديار المغربية، السيد أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني الحسني المغربي الفاسي [١٢٧٤-١٣٤٥هـ] ومنهم شيخه المحدث العلامة المسند الشيخ بدر الدين محمد بن يوسف الحسني الدمشقي المعروف بالمحدث الأكبر [١٢٦٧-١٣٥٤هـ]، ومنهم شيخه المحدث العلامة الشيخ بكر بن أحمد الزبري الحلبي [١٢٤٠هـ - ١٣١٢هـ] ومنهم شيخه المحدث، العلامة الشيخ كامل المؤقت الحنبلي الحلبي [١٢٧٠هـ - ١٣٣٨هـ] وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين ونفعنا بهم آمين.

ثم توالى الإجازات على شيخنا الإمام رضي الله عنه، من كبار العلماء والأولياء والمحدثين، في بلاد الشام والحجاز والمغرب والهند، كان منهم العلامة المحدث الحبيب عبد القادر بن أحمد بن عبد الرحمن بن علي السقاف والعلامة المحدث الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي الحضرمي والعلامة المحدث الحبيب زين العابدين بن إبراهيم بن زين بن سميط

الحضرمي ثم المدني والعلامة المحدث الشيخ السيد محمد مكّي بن السيد محمد بن جعفر الكتاني الحسيني المغربي ثم الدمشقي، والعارف المحدث الشيخ علوي المالكي الحسيني شيخ الحجاز في عصره [١٣٢٥-١٣٩١]، والشيخ محمد خير الدين إسبير الحلبي، والإمام المحدث العلامة الشيخ أبو علي حسن بن محمد بن عباس بن علي المشاط المكي المالكي، وغيرهم من الأئمة والمحدثين ممن أجاز شيخنا بإجازات خطية وشفهية، وأجازهم بما أجاز به الإمام العارف المحدث الشيخ محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى.

ونظراً لعلو أسانيد الشيخ الإمام وكثرة إجازاته من كبار المحدثين في بلاد الشام والحجاز والهند والمغرب فقد أفرد بالتأليف حول إجازات الشيخ وأسانيده العالية المؤرخ الباحث الشيخ أحمد بن محمد سردار الحلبي الشافعي رحمه الله تعالى أفرد مؤلفاً خاصاً بذلك - وكان قد حصل على إجازة من الشيخ الإمام في الحديث الشريف - مظهراً أسانيد الشيخ الإمام العالية.

من كراماته المتنوعة

كانت صفة الذل والانكسار لله تعالى ظاهرة عليه، لا تخفى على من اجتمع به، وكثيراً ما كان يقول:

أنا عبد الله اسماً وصفة وتحققاً، وإن شري وعزتي بعبوديتي وعبادتي لله تعالى، وخدمتي لكتاب الله تعالى وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم.

وكان متواضعاً مع عباد الله تعالى، امتثالاً لأمره سبحانه بقوله: **(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)** واتباعاً لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(وما تواضع عبد لله إلا رفعه الله تعالى).**

وكان يقول: مهما حاول المرء أن يأتي بجملة فيها معنى غاية التواضع للمؤمنين، لما استطاع أن يقول جملة أبلغ وأفصح وأدق من قوله تعالى: **(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)**.

وكان رضي الله عنه يؤثر الخفاء والتستر على التظاهر والتفاخر، ويذكر الحديث الذي رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي عن سيدنا معاذ رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(اليسير من الرياء شرك، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصايح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة).

أي: أن الله تعالى يحفظهم من الفتن التي يضل بها غيرهم.

وكان إذا سمع من أحد مدحاً وثناءً عليه، أو ذكراً لبعض كراماته بادر إلى القول: اللهم استرنا اللهم استرنا ويردد ما جاء عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه: اللهم اجعلني خيراً مما يظنون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون،

ومن كلامه رضي الله عنه: إنه من خلال اطلاعي الواسع على حياة الصحابة رضي الله عنهم وسيرتهم، لم أجد أحداً منهم تظاهر يوماً بكرامة، أو تحدث عن أمر خارق للعادة ظهر على يده، بل كان شأنهم الخفاء والتواضع، لأنهم صادقون مخلصون لله تعالى، يخافون من الرياء والسمعة، مع أن الله تعالى شهد لهم بالإخلاص له سبحانه فقال: **(يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا)** فلا غاية ولا قصد لهم إلا فضل الله، ورضاه سبحانه وتعالى.

قلت: ومن كراماته الشهيرة التي اعترف بها كل من جلس معه، أنه يحدثك بكلام فيه أجوبة عن كل ما جال في فكرك من أسئلة واستفسارات، وكثيراً ما يجد طلاب العلم عنده ما التبس عليهم فهمه من أمور علمية، وقضايا شرعية، بادرهم بالحديث عنها وبيانها، قبل أن يسألوه عنها.

قلت: وقد حصل معي هذا مرات عديدة، حتى إنه مرة أجابني عن تسعة أسئلة كنت أعد نفسي لسؤاله عنها رضي الله عنه، وكان إذا أخبره أحد عن ذلك يتبسم ويقول: اللهم استرنا اللهم استرنا، الفضل كله لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن كراماته التي تواترت ونقلت عنه، أن الله تعالى يجيب دعاءه لمن شكاه له العقم أو عقر زوجته، فكم من أشخاص تعبوا وقاسوا، وعجز الطب عن دوائهم، حتى يؤسوا من الولد، أمرهم شيخنا الإمام رضي الله عنه بتلاوة بعض الأسماء الإلهية بأعداد معينة، وبدعوات مأثورة، فأجابهم الله تعالى ووهبهم أولاداً.

وكم من مريض محب شفاه الله تعالى بسبب شربة ماء كان شيخنا الإمام قد قرأ ونفث فيها.

قلت: ويضيق المجال بنا في هذه الكلمات اليسيرة الموجزة عن حياة شيخنا الإمام رضي الله عنه أن نستقضي جل ما ظهر على يده من كرامات، وما أجرى الله على يده من خوارق عادات، وأكتفي بذكر بعضها، على أني سأسهب الكلام على ذلك في مؤلف واسع يتضمن ذكر مناقب شيخنا الإمام رضي الله عنه إن شاء الله تعالى.

- خرج مرة كعادته في نزهة مع بعض أصحابه في السيارة حول البلدة، وفي طريق العودة أسرع طفلة لا تتجاوز السادسة من عمرها لتقطع الطريق، ومرت أمام السيارة، ولم يتمكن السائق من إيقاف السيارة فدهس الطفلة بالعجلات الأمامية والخلفية، حتى ذكر من كان مع شيخنا الإمام أنهم سمعوا اختلاف أضلاعها والعجلات تمر فوقها، وصاح الشيخ رضي الله عنه: الله أكبر، ولما توقفت السيارة نزلوا منها، ونظروا فإذا بالطفلة تنهض وتركض ولا بأس بها، فتزاحم الناس على سيارة الشيخ لما سمعوا صوت المكابح، ورأوا ما حصل، وقد أخذتهم الدهشة، ولما رأوا شيخنا الإمام داخل السيارة جعلوا يسلمون عليه، ويقبلون يده، فما كان منه إلا أن حمد الله تعالى على خفي لطفه سبحانه، ودعا لهم، وأمر بإكرام الطفلة وأهلها.

- قدم أحد المهندسين من السودان للعمل في الدراسات والأبحاث الزراعية في شركة أجنبية تعرف باسم إيكاردا وقد استأجر داراً من رجل صالح محب لشيخنا الإمام، مواظب على سماع دروسه ومجالسه، وكان هذا المهندس قد شكوا من حصى في إحدى كليتيه وأجمع الأطباء وقتها على صعوبة وخطورة العمل الجراحي لاستئصالها، فرأى مرة في نومه شيخاً مهيباً، منير الوجه، حسن السميت، يناوله كوب ماء، ويأمره بشربه فشربه، فاستيقظ من نومه حاقناً، وأسرع لقضاء حاجته، فاندفعت الحصى ولم يبقى في كليته شيء منها، فأخبر جاره الرجل الصالح - مالك الدار - عن هذه الحادثة ووصف له ذلك الشيخ العظيم الذي رآه في المنام فقال له: سأصحبك معي لتتعرف عليه، ومضى معه لسماع درس شيخنا الإمام في جامع بانقوسا، فلما نظر المهندس إلى وجه شيخنا الإمام صاح: الله أكبر، والتفت إلى جاره وقال له: هذا هو الذي أتاني في المنام، ونولني كوب ماء، وشفاني الله تعالى به ولما ذكر ذلك لشيخنا الإمام رضي الله عنه: قال له: إنك ممن تحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وتحب الصالحين، وقد أكرمك الله تعالى بذلك، اللهم استرنا.

ولما توجه إلى بلاد الحجاز سنة /١٣٧٥ هـ، قاصداً حج بيت الله تعالى وزيارة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، تواتر عن من كان معه من أصحاب وأحباب كرامات كثيرة، أكرم الله بها شيخنا الإمام رضي الله عنه، أكتفي بذكر واحدة منها: وهي أن واحداً من أصحابه المتقدمين، ألم به مرض شديد، فخشي عليه أهله أن يموت معهم في الطريق، وشكوا أمرهم إلى شيخنا الإمام، فدعا الله متوسلاً بسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرفع عنه هذا البلاء، ويرده إلى أهله وبلده سالماً غانماً، فبات تلك الليلة فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقدم إليه صحيفة فيها أسماء.

قال شيخنا الإمام: فنظرت فيها فقرأت فيها أسماء أصحابي الذين قدموا معي وسيعودون معي، وبينهم ذلك الذي كان يعاني من المرض.

ثم إن شيخنا الإمام بشر أصحابه بذلك، وما لبث ذلك الرجل أن عافاه الله تعالى ببركة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ممن عاد مع شيخنا الإمام إلى بلده وأهله.

وكذلك لما حج سنة /١٣٨٥ هـ وصحبته السيدة الفاضلة والدي أمدها الله تعالى وأكرمها - ومعه جمع من أصحابه - وجدوا أيضاً من الكرامات المتعددة ما أدهشهم وزادهم إيماناً، كان أولها: أنهم لما كانوا في الطائرة، وكانت من النوع القديم، وتبلغ مدة الطيران من دمشق إلى جدة خمس أو ست ساعات زمنية، تضررت بعض أسلاك الكهرباء في الطائرة، وكان قائد الطائرة وأعوانه من الأوربيين، حتى جعل بعضهم يمس سقف الطائرة فيجد فيه التوتر الكهربائي، وظهر عليه الفزع والقلق، وأعلم الركاب بذلك، وأنهم على خطر، فما كان من شيخنا الإمام إلا أن أخذ بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى، والتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لأصحابه: لا تفزعوا فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال: **(الحجاج والعمار وفد الله - أي: ضيوف الله - إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم).**

وقال شيخنا الإمام: وحقاً على المزور أن يكرم الزائر، فكيف بمن قصد حج البيت الحرام، وزيارة خير الأنام صلى الله عليه وسلم!!!؟

ثم إن الطائرة هبطت بسلام في مطار جدة، وخرج قائدها من غرفته وقال للركاب: إن فيكم رجالاً عظيماً ذا شأن أنجانا الله تعالى بسببه.

وقبل وفاته رضي الله عنه بثلاث سنوات، قدم إليه وفد من دولة بعيدة، وشكوا إليه أن ابناً لأحد وجهاء البلد قد أصيب بمرض نفسي، أعيا الأطباء علاجه، وقد طاف به أهل البلاد، حتى بلغوا بلاد الحجاز ومصر وغيرها، فلم يسمعو من علماء وفضلاء هذه البلاد إلا قولهم: ما عليكم إلا أن تقصدوا رجلاً في حلب، لو أنه بصق عليه أو نظر إليه لشفاه الله تعالى، وهو العلامة العارف الشيخ عبد الله سراج الدين رضي الله عنه، وقد جئناك لهذا الغرض.

فقال شيخنا الإمام رضي الله عنه: اللهم استرنا وأكرمنا وأكرم ضيوفنا، ومن حسن ظنه بنا، ولا تخيننا ثم قرأ على ماء وأمرهم أن يشرب منها، وأوصاهم بتلاوة بعض الآيات القرآنية، والأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوقات معينة مع المواظبة، ومضت عدة أشهر، ما لبث فيها أن تماثل الولد للشفاء، والحمد لله رب العالمين.

نفحات محمدية صلى الله عليه وآله وسلم آثارها - بركاتها

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه:

كان سيدي الوالد رضي الله عنه قد قص علينا أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، وأمره أن يفتح فمه، فتفل صلى الله عليه وسلم في فيه ريقاً من فمه الشريف صلى الله عليه وسلم ثم أمره صلى الله عليه وسلم أن يفتح فمه مرة أخرى، فأخرج صلى الله عليه وسلم من صدره الشريف نخامة وتفلها في فم سيدي الوالد فابتلعها، ثم ضرب على ظهر سيدي الوالد وقال له صلى الله عليه وسلم:

لا بأس عليك يا شيخ نجيب، لا بأس عليك يا شيخ نجيب.

وكان الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه يتأول هذه التفلات المحمدية بالعلوم الشرعية الظاهرة، والعلوم العرفانية العالية، وهي ما يعرف بعلم الحقائق والمعارف الإلهية، وقد اشتهر عن الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه براعته فيها وتمكنه منها.

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: وإن لهذه التفلات المحمدية آثاراً نورانية، تسري في ذرية الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه وقد أكرمني الله تعالى بأني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، وذلك بعد وفاة والدي رضي الله عنه بفترة وجيزة، رأيت والدي الكريم وقد أخذ بيدي ضمن حشد من العلماء والأولياء، وكلهم ينتظرون قدومه صلى الله عليه وسلم

ليتشرفوا بالسلام عليه صلى الله عليه وسلم، فلما أقبل الرسول صلى الله عليه وسلم بطلعته البهية، وأنواره الزهية، ومعه عدد من صحابته الكرام، وإلى جانبه السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وهي في غاية الحشمة والوقار، فلما سلمت عليه صلى الله عليه وسلم تفل فوقعت التفلة المباركة على كتف السيدة عائشة رضي الله عنها، فتقدمت وأخذتها وابتلعتها، والحمد لله تعالى على ذلك، ثم التفت فلم أر سيدي الوالد رضي الله عنه ثم استيقظت فرحاً مستبشراً وعلمت أن سيدي الوالد رضي الله عنه هو الذي قد أوصلني إلى حضرة النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم، ونلت تلك التفلة المحمدية بأسرارها وأنوارها، وفي ذلك قلت: صلاة الله تترى كل حين على من حبه روح لروحي ويصحبها السلام بلا انتهاء على من ريقه منه فتوحي.

خصائص وفضائل

لقد غرس الشيخ الإمام رضي الله عنه محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قلوبنا وقلوب كل من لزمه، أو لزم دروسه ومجالسه، وحرصنا وحرصهم على بذل الجهد لاتباعه صلى الله عليه وسلم وإكثار الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم، كلمات جرت على لسان كل من استمع إلى دروس شيخنا الإمام رضي الله عنه أو حضر مجالسه أو قرأ بعضاً من كتبه.

وإذا كانت ألسنة الخلق أقلام الحق فلقد كان الشيخ الإمام رضي الله عنه حقاً من المحبين الصادقين الذين كانت محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قلوبهم فوق محبة كل مخلوق وقد ظهر ذلك في أقواله وأفعاله وسائر شؤوناته فلم يك يخلو مجلس من مجالسه عن ذكر بعض شمائل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وخصائصه وفضائله كما أنه لم يدع موضوعاً أو بحثاً من الأبحاث التي تكلم عنها في كتبه إلا وضمنها ذكر بعض صفاته وخصاله صلى الله عليه وسلم حسب ما تقتضيه المناسبة وهكذا.

وكان رضي الله عنه يعتبر ذلك من مقتضيات الإيمان الصحيح إذ قال صلى الله عليه وسلم: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده وولده والناس أجمعين.

وقد أسهب رضي الله عنه في الكلام على محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدد من كتبه منها: كتاب (حول تفسير سورة الكوثر) وكتاب (الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم) وكتاب (حول تفسير سورة الحجرات) وغيرها.

وذكر فيها وجوب محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على كل مؤمن وفضائلها وآثارها وسرد في ذلك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة وما كان عليه سلف هذه الأمة من المحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والأدب معه صلى الله عليه وسلم.

وكان رضي الله عنه يقول: من زعم أننا بالغنا في محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه والأدب معه صلى الله عليه وسلم فقد أخطأ خطأ كبيراً وكشف عن جهله بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما لم نبلغ الحد الأدنى المطلوب منا في محبته وتوقيره والأدب معه صلى الله عليه وسلم حتى يقال: لقد بالغنا.

واعلم أن قضايا الإيمان كلها إنما هي معقولة مقبولة عند أصحاب العقول المجردة من الأهواء والشبهات إن هم تفكروا وتبصروا ولما كانت محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق محبة كل مخلوق أمراً هاماً من قضايا الإيمان: سلم به وأذعن له العقلاء والفتناء لأنهم علموا وأدركوا أن سبب المحبة يعود إلى أمرين هما الكمال والنوال فلو بحث العاقل عن صفات الكمال كلها لوجدها مجتمعاً في رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه فريد لا يساويه فيها غيره، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء يفيض على الناس صفات الكمال والمحسن وهذا مقتضى قوله تعالى: **(ويزكركم)** والتزكية هي التحلي عن النقائص والردائل والتحلي بالكمالات والفضائل.

وأما صفة النوال وهو الكرم والجود والسخاء وهي صفات محبوبة لدى كل إنسان فإن خير من جاء بها وأمر بها هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال الله فيه: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)** أي: لكل العالمين في جميع العالمين أي: العوالم التي يمر عليها كل إنسان.

وإذا وجد هناك إنسان عظيم يريد لك الخير أكثر مما تريده لنفسك ويحرص على سعادتك ويشق ويصعب عليه ما فيه إحراج ومشقة عليك ألا يجب أن تحبه أكثر من محبتك لنفسك؟

بلى إن هذا أمر معقول مقبول عند من أنصف وتفكر وفي هذا يقول تعالى: **(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ)** أي: يصعب عليه ما فيه عنت لكم **(حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ)** أي: على هدايتكم وصلاحكم ونفعكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة **(بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)** أي: يسعى في دفع الأذى والضرر عنهم ويجلب الخير بأنواعه لهم وقال تعالى: **(النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ)** أي: - أحق بهم من أنفسهم وأرحم بهم من أنفسهم - ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية: **(ما من مؤمن وإلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) فأبما مؤمن ترك مالا فليثره عصبته من كانوا وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه).**

ولقد نال شيخنا الإمام رضي الله عنه مقامات كبيرة في محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واتباعه في الأقوال والأفعال والأخلاق والآداب لأن المحبة الصادقة وإن كانت من أعمال القلوب لا بد أن يظهر أثرها على الجوارح وذلك باتباع المحبوب في جميع ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم.

ولقد جعل رضي الله عنه نفسه رهن إشارة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لا يقدم على أمر ذي بال حتى يأتيه إذن صريح به من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يحرص ويدعو إلى قراءة كتابه [سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمائله الحميدة - خصاله الحميدة] ويقول: لا لأنه كتاب من جمعي وتأليفي بل لأني ذكرت فيه جوانب متعددة من شمائله صلى الله عليه وسلم وخصاله وفضائله وخصائصه والتي يجب على كل مؤمن أن يتعرف عليها لتزداد محبته لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصح ويكمل إيمانه برسول الله صلى الله عليه وسلم.

كما كان رضي الله عنه كثيراً ما يحرص الناس على الإكثار من الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما لها من فوائد وآثار وفضائل وأن يجعلوا ذلك من جملة أورادهم اليومية بالإضافة إلى قراءة جزء من القرآن الكريم وبقية الأذكار التي ندب إليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان رضي الله عنه يقرأ قصة المولد النبوي الشريف للإمام البرزنجي رضي الله عنه بمناسبة ولادته صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأنور وذلك وقت الدرس في جامع بانقوسا والجامع الكبير وجامع الحموي وفي جلسة خاصة لطلاب العلم في المدرسة الشعبانية ويرغب الناس في إقامة تلك الحفلات التي تعبر عن الابتهاج والفرح بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم مع مراعاة الآداب الشرعية في تلك المجالس لأنها مجالس عبادة تنطوي على تلاوة آيات من القرآن الكريم وذكر الله تعالى وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وسماع لدرر من شمائله وأخلاقه الشريفة صلى الله عليه وسلم فينبغي على كل مؤمن أن يلتزم جانب الأدب في تلك المجالس.

ومن نظم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم المأثورة عنه رضي الله عنه: اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، اللهم صل على سيدنا محمد صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنا يا رب العالمين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، اللهم صل على سيدنا محمد بقدر حبك فيه، وفرج عني وعن المسلمين ما نحن فيه، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

والفرج يتضمن معنى رفع الكرب والشدائد والمصاعب والهموم والغموم، ومنها:

اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تغفر بها ذنوبنا وتشرح بها صدورنا وتفرج بها كربنا وتنور بها قلوبنا وتلهمنا بها رشدنا وتحفظنا بها من كل سوء ومكروه في الدنيا والآخرة يا رب العالمين وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

ومنها: اللهم يا دائم الفضل على البرية يا باسط اليدين بالعطية يا صاحب المواهب السنية يا غافر الذنب والخطية صل وسلم وبارك على سيدنا محمد خير الورى سجية وعلى آله وأصحابه البررة النقية في كل لمحة ونفس وغدوة وعشية وفرج عنا كل شدة ورزية بجاه إشراقات الطلعة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم وأسرارها البهية يا رب البرية.

جواره الحبيب الأعظم

جواره الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة بأنواره صلى الله عليه وسلم

كان ذلك في شهر ربيع الأنور من عام / ١٤٠٠ / للهجرة الشريفة، وحتى شهر شعبان من عام / ١٤٠٣ / للهجرة الشريفة فجاور في المدينة المنورة ما يزيد على ثلاث سنوات ونصف السنة.

كان سفره للحجاز لأداء العمرة المباركة والزيارة الشريفة لخير خلق الله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم مكث في المدينة المنورة تلك المدة امتثالاً لأمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاءه ذلك في رؤيا منامية وإشارات غيبية، إذ لم يكن يقدم على أمر ذي بال حتى يأتيه الإذن به من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد كان فرحه وبهجته بجوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يوازيه شيء، إذ كان ذلك غايته ومنيته، وكان جوابه إذا سأله أحد من أحبائه عن حاله يقول: الحمد لله الذي أحلنا دار المقامة من فضله، فلا دار بعد دار رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا إقامة ترجى بعد الإقامة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان رضي الله عنه يقول: إذا كان جار الكرام لا يضام، بل يكون في رغد وسلام، فكيف حال من جاور سيد الكرام سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، أكرم الأولين والآخرين على رب العالمين.

وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة، ودعا لها ولأهلها بالخير والبركة، ودفع الشدة والبلوى عنها، ووعد صلى الله عليه وسلم بالشهادة والشفاعة الخاصة لمن جاور فيها أو مات فيها، كل ذلك جاء في أحاديث وردت عنه صلى الله عليه وسلم.

ولقد توالى عليه الكرامات والنفحات الإلهية المحمدية، مما جعله يترقى في مقامات القرب من الله تعالى، وتواردت عليه البشائر بالرؤى المنامية، وعلى لسان المحبين الصالحين من أهل المدينة وغيرها.

ولم يكن حديثه في مجالسه يخلو من التذكير بالآداب الواجبة على من أقام في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو جاور فيها، أو قصد لها لزيارة الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم، والصلاة في مسجده عليه الصلاة والسلام، ويذكر في هذا السياق ما كان عليه سلفنا الصالح رضي الله عنهم، ومنهم الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، إمام دار الهجرة،

وأحد الأئمة المجتهدين، فكان يمشي في سكك المدينة المنورة حافياً، ولا يركب مركوباً، وإذا أراد قضاء حاجته ابتعد خارج أسوار المدينة، أديباً مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتكريماً لأرض وطئتها أقدامه الشريفة صلى الله عليه وسلم.

وإذا أراد التحديث في المسجد النبوي توضأً وتطيب، ولبس ثياباً جددًا، ولبس ساجاً وتعمم، وإذا شرع في رواية الحديث خشع وأخذه الوجل والمهابة، وتغير لونه إجلالاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا سائر علماء السلف رضي الله عنهم.

ولم يرجع شيخنا الإمام رضي الله عنه إلى حلب إلا بعد أن جاءه الإذن من الحضرة المحمدية صلى الله عليه وسلم بالعودة وكان يقول: ذهبت بإذن وأقمت بإذن ورجعت بإذن ونسأل الله تعالى أن يتولانا في جميع قضايانا.

وقد استأنف دروسه المباركة بعد عودته، وجعلت المدرسة الشعبانية تزهر برعايته وعنايته وإن لم تنقطع توجهاته ودعوته لها وللعاملين فيها طيلة فترة إقامته في المدينة المنورة،

تبركه بالأثر النبوي الشريف وتعظيمه له

وكان من عادته رضي الله عنه كل ليلة قبل أن يقوم إلى النوم أن يتناول الأثر الشريف بكلتا يديه ويتوجه إلى القبلة ويقبله ويمسح به عينيه ووجهه ورأسه وصدره ثم يبدأ الحاضرون من أولاده وأحفاده بالتقدم لتقبيله والتمسح به والأثر الشريف في يديه رضي الله عنه والألسنة تلهج بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا فرغ الحاضرون من تقبيل الأثر الشريف والتبرك به بدأ شيخنا الإمام بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى متوسلاً بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من دعائه: اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وأزواجه وذريته وآل بيته وعلينا معهم أجمعين كما صليت وسلمت وباركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد صلاة تشفيننا بها من كل داء وتعافينا بها من كل بلاء وأفض علينا يا مولانا من بركاته صلى الله عليه وسلم وأنواره وأسرارته ونفحاته نفحات محمدية تسعدنا بها في الدنيا والآخرة.

وكان إذا اجتهد في الدعاء يردد هذه الأبيات:

إلى بابك العالي مددت يد الرجا

ومن جاء ذاك الباب لا يختشي الردى

سألتك يا الله مستشفعاً بمن ضيا

وجهه الوضاء يبرق في الدجى

صلى الله عليه وسلم أبداً أبداً

والأثر النبوي الشريف هو شعرة من شعر لحيته الشريفة صلى الله عليه وسلم من موضع العنفة الشريفة لأنها في لوئها إلى الشيب أقرب، وما شاب من شعره الشريف إلا شعرات من عنفقتة الشريفة المباركة صلى الله عليه وسلم، وقد ورثها شيخنا الإمام عن مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنهما والتي كان جدي الفاضل السيد الحاج محمد ططري رحمه الله تعالى قد استوهبها من الشيخ عوني خلاصي رحمه الله تعالى وأهداها إلى مولانا الشيخ محمد نجيب رحمه الله تعالى ويؤيد صحة تسلسلها سند مرفق معها وهي موضوعة في زجاجة محكمة الإغلاق وفي نهايتها قليل من الشمع متصل بها ثم إن هذه الزجاجة موضوعة في أسطوانة مصنوعة من الذهب ونقش عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وهذه الأسطوانة ملفوفة بقطعة قماش أخضر وتفوح منها رائحة العطر الزكية دون أن يمسه أحد بطيب، وإن شيخنا الإمام رضي الله عنه كان يعظم هذا الأثر النبوي الشريف ويضعه في أعلى مكتبته الخاصة به رضي الله عنه.

وفاته

وكانت وفاته رضي الله عنه عشية الاثنين في العشرين من شهر ذي الحجة سنة /١٤٢٢/ من الهجرة الشريفة.

وقد دفن شيخنا الإمام رضي الله عنه في مدفن جامع المدرسة الشعبانية - وهذا المدفن وقفي - بناء على وصيته ولما لها من منزلة عنده وقد ازداد المكان بهاء وجلالاً وأنواراً بمرقد شيخنا الإمام فيه ويشعر الزائر له بالأنس والسكينة وكأنه في روضة جنانية وهذا هو شأن عباد الله المتقين المخلصين المحبين لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

منقول من الموقع الرسمي للشيخ

بتصرف

